المحاضرة السابعة: الحضارة الفارسية: نشأتها – مظاهر الحضارة الفارسية

الحضارة المبكرة: كانت الفرس أمة عريقة منذ القدم وهي ذات حضارة عريقة مزدهرة، ونبغت في فنون السياسة والإدارة والحروب ومظاهر الترف والرفاهية.

كانت أولى الحضارات في فارس تلك التي أقامها العيلاميون الذين ربما استوطنوا البلاد منذ حوالي عام 3000 ق. م. وقد بدأت قبائل الميديين والفرس تنتقل داخل فارس في القرن العاشر قبل الميلاد. وأنشأ الميديون أول دولة لهم في الهضبة الفارسية في القرن الثامن قبل الميلاد ووصلوا ذروة قوتهم في أواخر القرن السابع قبل الميلاد. ثم تمكن الفرس بقيادة قورش الكبير من الإطاحة بالميديين في حوالي عام 550 ق. م.

وقد مرّ تاريخ الفرس بثلاثة أطوار أساسية هي: الدولة الإخمينية والدولة الإشكانية والدولة الساسانية. إلا أن المعلومات عن الدولتين الأولى والثانية قليلة، وتأثيرهما على غيرهما من الحضارات وخاصة الإسلامية محدود، وكان التأثير والمعلومات عن الساسانيين هو الأكبر والأوضح ،[1] لهذا ستكون الحضارة الفارسية زمن الساسانيين هي مدار هذه المحاضرة.

الإمبراطورية الإخمينية: وسع قورش الإمبراطورية الميدية باحتلاله مملكة ليديا حوالي 545 ق م، ثم ضم تدريجيًا المستعمرات اليونانية في إيونيا غربي آسيا الصغرى، وسماها الإمبراطورية الأخمينية على اسم سلفه أخمينيوس. وقد تمكن قورش من هزيمة بابل في 539 ق. م. وحرر اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر وكانوا في الأسر هناك. كما أنشأ إمبراطورية امتدت من البحر الأبيض المتوسط وغربي آسيا الصغرى إلى أعالي نهر السند، وهو ما يُعرف اليوم بشمال الباكستان، ومن خليج عمان إلى بحر الآرال.

استطاع قمبيز، ابن قورش، هزيمة مصر حوالي عام 525 ق. م، لكنه توفي في طريقه وهو عائد إلى فارس. وقد أعقبت ذلك حرب أهلية بسبب النزاع حول الحكم، وتمكّن داريوس الأول، أحد أقرباء قمبيز، من أن يصبح ملكًا حوالي 522 ق. م.

أعاد داريوس تنظيم الحكومة بنظام المرزبانيات، وأقام السلطة المطلقة للشَّاهانشاه، كما طوّر نظامًا مُحكمًا للضرائب. كذلك بنى القصور في عاصمتين من عواصمه هما برسيبوليس وسوسا.

[1]- ينظر: محمد خريسات وآخرون، تاريخ الحضارة الإنسانية، ص127.

ووسّع داريوس الإمبراطورية الفارسية داخل جنوب شرقي أوروبا وداخل ما يسمى الآن جنوب الباكستان.

وفي حوالي عام 513 ق. م، قام الفرس بغزو المنطقة التي تقع غربي البحر الأسود وجنوبيه ولكنهم لم يحتلوا أراضي واسعة. وأرسل داريوس جيشًا إلى اليونان حوالي عام490 ق.م، ولكن القوات الأثينية هزمته في ماراثون. ثم توفي داريوس حوالي عام 486 ق.م عندما كان يعد العدة لهجوم جديد على اليونان.

غزا أحشورش بن داريوس، اليونان حوالي عام 480 ق.م، وهزم قوة من الأسبرطيين وغيرهم من اليونانيين بعد معركة شرسة في الثرموبايلي. لكن الفرس واجهوا هزائم طاحنة في سلاميز و بلاتايا وأُخرجوا من أوروبا حوالي عام 479 ق.م.

تدهورت فارس بعد موت أحشورش، ولكن الإمبراطورية استمرت بالرغم من الانتفاضات حتى حوالي عام 331 ق.م، عندما هزم الاسكندر المقدوني جيشًا فارسيًا ضخمًا في معركة (أربيل وتُسمى أحيانًا معركة جوجاميلا). وانتهت بذلك الإمبراطورية الأخمينية وأصبحت فارس جزءًا من إمبراطورية الاسكندر.

الأسرة السلوقية: بعد أكثر من عشر سنوات من موت الإسكندر في 323 ق.م، أسس سلوقوس، أحد قواده، أسرة لتحكم فارس والمناطق المجاورة. أنشأ السلوقيون العديد من المدن وأدخلوا الثقافة اليونانية في غربي آسيا وفي أواسطها، وتمكن الفرثيون من حكم فارس بدءًا من 155 ق.م.

الإمبراطورية الفرثية: استمرت حتى عام 224 م. وقد أسس الفرثيون إمبراطورية واسعة بامتداد شرقي آسيا الصغرى وجنوب غربي آسيا. وفي المائتي عام الأخيرة من حكمهم، كان على الفرثيين أن يُحاربوا الرومان في الغرب وفي الكوشان، وهو ما يعرف حاليًا باسم أفغانستان، ومن ثم اندلعت الحروب الأهلية في الإمبراطورية الفرثية.

وفي حوالي عام 224 م، قام فارسي يُدعى أردشير بالإطاحة بالفرثيين، وتسلم الإمبراطورية الفرثية. وبعد أكثر من 550 سنة، وفي ظل حكام آخرين، استطاع الفرس أن يحكموا فارس مرة أخرى.

الأسرة الساسانية: سُمِّيت كذلك تكريمًا لاسم ساسان؛ الجد الأكبر لأردشير. وقد حكمت الأسرة الساسانية في فارس حتى منتصف القرن السابع الميلادي. وقد استمرت الحرب بين الفرس والرومان طوال فترة حكم الساسانيين. وبعد أن اعتنق الرومان النصرانية في القرن الرابع الميلادي، بدأ الصراع يأخذ شكلاً دينيًا بين النصرانية والزرادشتية.

بلغت الحضارة الساسانية أوج قمتها في منتصف القرن السادس الميلادي حيث حقق الفرس عددًا من الانتصارات على الرومان وأعادوا احتلال أراضٍ كانت جزءًا من الإمبراطورية الأخمينية. تقدمت القوات الفارسية حتى أبواب القسطنطينية (إسطنبول، في تركيا حاليًا (التي كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية)، ولكنهم هزموا هنالك وأجبروا على الانسحاب من كل الأراضي التي احتلوها.

أدى ظهور الإسلام، في جزيرة العرب، إلى نهاية سريعة للأسرة الساسانية في منتصف القرن السابع الميلادي، حين فتح المسلمون فارس حوالي عام 15هـ، 637 م، ولم تمض إلا سنوات قلائل وكان الإسلام قد انتشر في سائر بلاد فارس. وكما صان الإسلام أرواح الناس بعد اعتناقهم له، فقد أبقى الحكام المسلمون على العمارة الفارسية، وفنونها، وآدابها مالم يتعارض ذلك مع جوهر الدين.

وقد لعبت الحضارة الفارسية دورا عاليا كممثلة للشرق وزعيمة له في مقابل الغرب ممثلا في اليونان والرومان في دوريها (الإخميني و الساساني)، إلا أن أهميتها الكبرى تبقى في الآثار الكبيرة التي أثرتها في الحضارة العربية الإسلامية، فلم ينظر العرب المسلمون بالاحترام والإجلال والانبهار لحضارة من الحضارات قدر الحضارة الفارسية، ولا تكاد تري كتابا سطروه– ما خلا كتب الشرع– إلا واقتبسوا فيه من أقوال حكماء الفرس، وأوردوا فيه نبذا من سيرة ملوكهم من أمثال عهد أردشير، وأقوال بزر جمهر، وسيرة كسرى أنو شروان وغيرها.

أما في تراتيبهم الإدارية فتأثروا بالفرس أكثر من غيرهم من أمم الدنيا ونظروا إلى العنصر الفارسي على أنه أكرم العناصر بعد العرب، ولم يمتزجوا بشعب في الدنيا امتزاجهم به، لهذا كان الشعب الفارسي والمسلم أكثر الشعوب مشاركة للعرب في السلطة والحضارة التي أسسها الإسلام[1]. ولهذا لا نعجب إذا وجدنا ترجمات العرب للمصادر الفارسية ونقلهم منها مثل: عهد أردشير، وسير

[1]– محمد خريسات وآخرون، تاريخ الحضارة الإنسانية، ص127.

الملوك، ومزدك نامه وكليلة ودمنة الذين عربهما ابن المقفع ، إضافة إلى الكثير من آداب الفرس مثل الرباعيات لعمر الخيام وغيرها.

مظاهر الحضارة الفارسية:

طرق الفرس كل ضروب العلم، وأسهموا في جميع مظاهر الحضارة العالمية، وكان لهم مساهمات طبية وفلسفية وأدبية لا تنكر، إلا أن أهم مظهر تميزت به الحضارة الفارسية هو المظهر الديني الذي كان فريدا من حيث المعتقدات والممارسات التي ما زال لها أتباعها في إيران حتى اليوم، أو من حيث تجلياتها في جماعات الزندقة في الإسلام.

وكذلك الإدارة الفارسية كانت مهمة وفذة في بعض جوانبها، وقد تجلت آثارها على الإدارة الإسلامية زمن العباسيين ومن جاء بعدهم، وتشبه المتأخرين من ملوك الإسلام بتقليد رسوم الفرس وطريقة ملوكهم في المعيشة... من اتخاذ القصور والقيان واللهو والطرب ...

الديانة الإيرانية القديمة هي: الزرادشتية

نسبة إلى مؤسسها زرادشت، ولم يتمكن المؤرخون من تحديد وقت معلوم لظهور هذه الديانة، ولا المنطقة الجغرافية من إقليم إيران التي وجدت فيها، أو اللغة الأولى التي دوّن فيها الكتاب المقدس(الأوستا)، وأخيرا اتفقوا على زمن تقريبي لوجود زرادشت وهو القرن السابع قبل الميلاد.

الزرادشتيون: هم الذين ورد ذكرهم في القرآن والحديث باسم (المجوس) وكلمة مجوسية بهلوية (مكوسيا) وهو لقب كان يلقب به رجل الذين القديم في إيران قبل انتشار دين زرادشت[1].

فراح يدعو لدينه ويتجول في الأقطار مبشرا بدينه وكتابه الذي هو (Avesta) والعرب يلفظونه (أفستا) يبلغ حجم الكتاب واحدا وعشرين مجلدا كبيرا لم يبق منه إلا أوراق متناثرة[2].

المانوية: نسبة إلى (ماني) مؤسس المانوية أعدم سنة 272هـ، وهو مصلح ديني إيراني، ادعى النبوة وعمره 24 سنة، وانتقل إلى الهند يبشر بدينه، إلا أن دعوته لقيت رفضا من الزرادشتيين، فأجبروا كسرى بهرام بن شابور على إعدامه، وبموته انتشرت دعوته في آسيا والإمبراطورية الرومانية"[3].

---

[1]- محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1999، ص508.

[2]- المرجع نفسه، ص508.

[3]- المرجع نفسه، ص 750.

المزدكية: نسبة إلى مزدك المولود في نيسابور عام 487، والمقتول عام 523. كان في البدء مانويا، ثم انشق عن ماني وقال بثلاثة أصول للعالم بدلا من أصلين: وهي الماء والتراب والنار، اتحدت بنسب متساوية فكان الخير، وبنسب متفاوته فكان الشر، ولا يكون الإنسان ربانيا إلا إذا اجتمعت فيه أربع قوى هي: التمييز، و الفهم، والحفظ، والسرور، فمن كانت له رفعت عنه التكاليف، ولن تنعقد السعادة للناس إلا إذا كانت لهم متع الدنيا شركة فيما بينهم[1].

الإدارة ونظام الحكم: قُسِّم الشعب الإيراني زمن الدولة الساسانية إلى أربع طبقات تنقسم كل منها إلى مجموعة من الطبقات الأخرى. ولكل طبقة رئيس يرأس مجموعة من المستخدمين، وكانت هذه الطبقات الأربع مسبوقة بطبقة الملوك (شهر داران)، وهي:

1–طبقة رجال الدين(آثروان).

2– طبقة رجال الجيش (آرتشتاران) .

3–طبقة الكتاب (دبيران).

4– طبقة الفلاحين والصناع (وستيوشان–هوتخشان).

– طبقة الملوك شهرداران: تشتمل على أفراد الأسرة الساسانية الحاكمة والأمراء التابعين للدولة الذين يحكمون في أطرافها، بالإضافة لحكام الإمارات التي كانت تابعة لفارس.

– طبقة الإقطاعيين (واسبوهران) تشتمل على كبار الإقطاعيين، وهي سبعة أُسر، منها الأسرة الساسانية وكانت الوظائف التي تورث بين أبنائها، رئاسة الشؤون العسكرية، ورئاسة الفرسان، ورئاسة الشؤون المدنية، وعامل الخراج، ومفتش الخزائن الملكية، وكانت قوتهم تعتمد على مستوى دخل إقطاعاتهم، وعلاقاتهم برعاياهم، بالإضافة لعلاقتهم القوية بالملك مما يمنحهم ميزة عن غيرهم.

– طبقة العظماء (بزر كان) : تشتمل على كل من يتصدون للأعمال الهامة في الدولة، وأهم أصحاب المناصب العليا هم:

1 – كبير الوزراء (البزركفرمادار) وهو رئيس المركزية، وكان يحل مكان الملك في غيابه، وهو رئيس المفاوضات الدبلوماسية مع الدول المجاورة.

[1]– محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ج2، ص 784.

2–كبير الموابذة (موبذانموبذ[1]) كانت قبيلة المغان الميدية تشكل القادة الروحانيين للدين الجديد، وتسميهم الأوستا باسم الآثروان، وكان الموبذانموبذ يُختار على الدوام من قبل المغان، ويستندون في قوتهم إلى سلطانهم الروحي وحق القضاء المتحول إليهم من قبل الدولة، وإصدار شهادات الميلاد وعقود الزواج،..وكانت الدولة الساسانية مقسمة إلى مراكز دينية على رأس كل منها موبذ، وكبيرهم يسمى موبذانموبذ.

- ويأتي الهرابذة بعد الموابذة وزعيمهم يسمى الهربذان والهربذ، هم المسئولون عن إدارة المراسيم الدينية في المعابد، وهم خدام النار المقدسة ، ويقومون بأداء الزمزمة، وقد عرّفهم الخوارزمي بقوله: خُدام النار. وكانت بيوت النار مقسمة على النحو الآتي:

أ–هناك نار لكل أسرة وعلى الرئيس القيام على أمرها ومراقبتها حتى لا تخمد.

ب– هناك نار لكل قرية تسمى (آذران).

ج– نار لكل إقليم تسمى (بهرام).

د– هناك ثلاثة معابد للنار لها احترام وقدسية خاصة في كل الدولة الساسانية.

3– رئيس كتاب الملك (إيران ديبيربذ): يرأس مجموعة من الكتاب يقومون بمهام مختلفة جدا منها صياغة الوثائق الرسمية ومراسلات الدولة، من حيث تضمينها بمجموعة من المأثورات الدينية وأقوال الحكماء. وكذلك الجيش مقسم إلى:1– أساورة خالدون.2–أساورة متطوعون.3–أساورة فدائيون...

خصائص الشعب الفارسي القديم

للحديث عما يميز الجنس الفارسي نكتفي بشهادة ويل ديورانت في حديثه عن ملوك الفرس وشعبهم قديما في تعاملهم مع غيرهم في الحروب: "إن الملوك أنفسهم –ملوك الفرس– كانوا يبدون في بعض المناسبات شيئا من مكارم الأخلاق، وكانوا يشتهرون بين اليونان الغادرين بوفائهم. فإذا عاهدوا أوفوا بعهدهم، وكان من دواعي فخرهم أنهم لا ينقضون كلمتهم. ومما يجب أن نذكره للفرس

[1]– **الموبذ** هو قاضي المجوس ينظر: الخوارزمي ،مفاتيح العلوم، دار الفكر اللبناني، ص150.

مقرونا بالثناء والتقدير، أن من العسير علينا أن نجد في تاريخهم فارسيا قد استُؤْجِر ليحارب الفرس، على حين أن أي إنسان كان يسعه أن يستأجِر اليونان ليحاربوا اليونان"[1].

الأدب الفارسي: لا يعرف من الأدب الإيراني القديم إلا عبارات منقوشة في عهد الملوك الأخيمينيين. ولم يصلنا من النصوص المكتوبة باللغة الزندية القريبة من الإيرانية القديمة إلا آثار قليلة منها: (الأفستا) وهي مجموعة الأناشيد و التعاليم التي يتألف منها كتاب الزرادشتيين المقدس، ثم كتاب الزند الذي هو تفسير الأفستا.

أما الأدب المكتوب باللغة الفهلوية أو الإيرانية فقد كان في معظمه كتابات دينية. يقول ويل ديورانت: "أما الأدب فكان في رأيهم ترفا قل أن يحتاجوا إليه، وأما العلوم فكانت سلعا يستطيعون أن يستوردوها من بابل. نعم إنهم كانوا يستسيغون بعض الاستساغة الشعر والروايات الخيالية، ولكنهم تركوا هذين الفنين للمستأجرين وذوي المنزلة الدنيا منهم، وكان الشعر عندهم يغنى أكثر مما يقرأ، فلما مات المغنون مات الشعر بعدهم"[2].

[1]– ويل ديورانت: قصة الحضارة، م 1، ج2، تر: زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1408هـ– 1988 ص 439.

[2] – المرجع السابق، ص 445.